العمـارة الإسـلامية في العـهد العبـاسي - ABBASID ARCHITECTURE

العمـارة الإسـلامية في مصـر في عـهد الدولـة الفـاطمية

Fatimid Architecture in Egypt

(362-567 هـ / 972-1171 م)

انطلق الفاطميون من تونس، حيث أسسوا دولتهم عام 297 هـ/ 909 م بعد القضاء على دولة الأغالبة. مد الفاطميون نفوذهم على سائر المغرب وعلى صقلية، ثم توسعوا باتجاه الشرق فاستولوا على مصر وبلاد الشام والحجاز في عهد خليفتهم المعز لدين الله وقائده جوهر الصقلي، الذي أسس مدينة القاهرة لاتخاذها عاصمة للخلافة الفاطمية عام 362هـ/ 972م. استمرت الخلافة الفاطمية مدة قرنين تقريبا، إلى أن تم القضاء عليها في مصر عام 567 هـ/1171 م.

1. القــاهرة الفــاطمية وأســوارها - Fatimid Cairo

سبق تأسيس مدينة القاهرة الفاطمية ثلاث حواضر إسلامية، هي على التوالي: الفسطاط التي أنشئت على الضفة الشرقية لنهر النيل أيام عمرو بن العاص، ثم إلى الشمال منها العسكر العباسية، تليها القطائع الطولونية. وتقع القاهرة الفاطمية إلى شمالها جميعا وتتميز عن العواصم السابقة بتحصينها بسور خارجي.

القاهرة الفاطمية لم تكن ذات مساحة واسعة، فأبعادها لم تتجاوز 1200 م، لأنها أنشئت لتكون مقرا للحكم والحكام وليس لاستيعاب سكان العاصمة، الذين بقوا يقطنون في الأجزاء الأقدم من المدينة. القاهرة الفاطمية أشبه بالقلعة المقسمة إلى أحياء مختلفة، تفصل بينها أزقة وشوارع أهمها شارع المعز الذي يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب (المعروف اليوم بسوق النحاسين)، يحف به في وسط المدينة قصران، الكبير الشرقي والصغير الغربي، بينهما رحبة واسعة لاستعراض الجند معروفة باسم بين القصرين.

شيدت الأسوار الأولى للقاهرة سنة 362 هـ/ 972 م وكانت مبنية من اللبن رغبة من القائد جوهر في سرعة تأسيس المدينة. ولكن هذه الأسوار سرعان ما تهدمت وجرى تجديدها بدءا من عام 480 هـ/ 1087 م في عهد الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالي. جُعل السور الجديد خارج السور القديم ويبعد عنه حوالي 150 م. بني هذا السور من الحجر المنحوت المتقن، ولا زالت أجزاء هامة منه قائمة إلى اليوم. وهو مزود بثمانية أبواب، أشهرها باب النصر وباب الفتوح الواقعان في الشمال وباب زويلة، الذي يتوسط السور في الجنوب. لهذه الأبواب قيمة معمارية هامة نظرا لجودة بنائها وظهور عناصر معمارية ودفاعية هامة فيها.

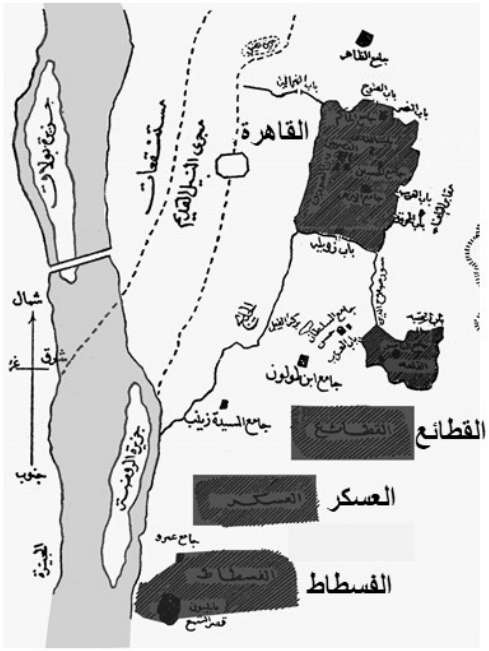

توسع المدينة من الفسطاط إلى القاهرة

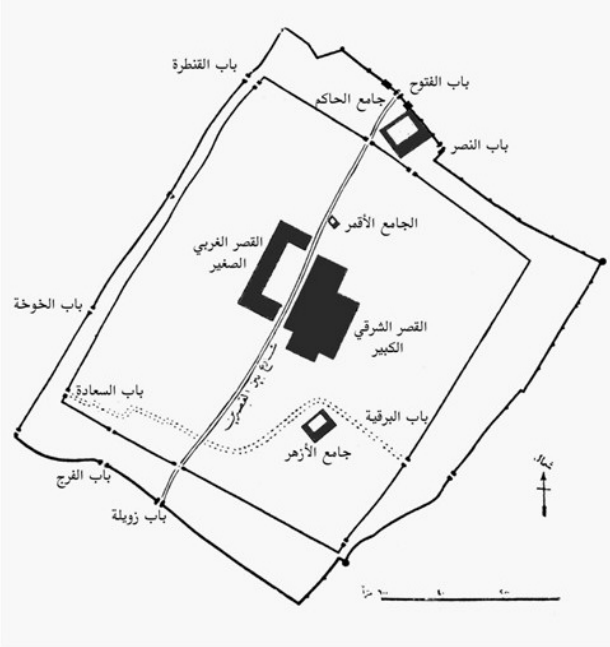

مخطط مدينة القاهرة الفاطمية

باب النصر باب مفتوح بين برجين مربعين وهو عبارة عن باب مباشر ينفتح على فراغ مسقوف يعلوه ممر دفاعي يسمح باستخدام مرامي السهام والسقاطة التي تحمي الباب. أما باب الفتوح وباب زويلة فيحف بهما برجان بارزان ينتهيان بنصف دائرة.

تتميز واجهة **باب الفتوح** باستخدام المحاريب المسطحة بالإضافة إلى العناصر الدفاعية من سقاطات لصب الزيوت المغلية ومرام للسهام وشرافات تنتهي بنهايات نصف دائرية. استخدام الحجارة الكبيرة المنحوتة يعزى إلى تأثيرات سورية وسلجوقية أدخلها ثلاثة معماريين أرمن استقدمهم بدر الجمالي من مدينة أورفة. نجد في **باب زويلة** العناصر نفسها من محاريب مسطحة تزيينية وعناصر دفاعية ولكن يلفت النظر وجود مئذنتين تابعتين لجامع المؤيد شيخ أقيمتا فوق البرجين في فترة لاحقة أيام المماليك.

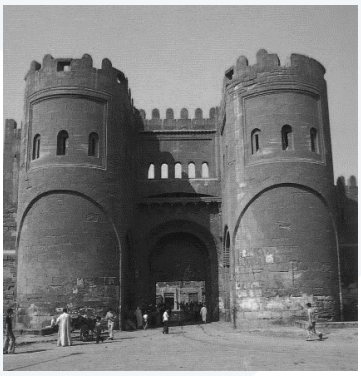
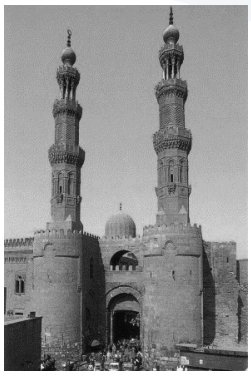
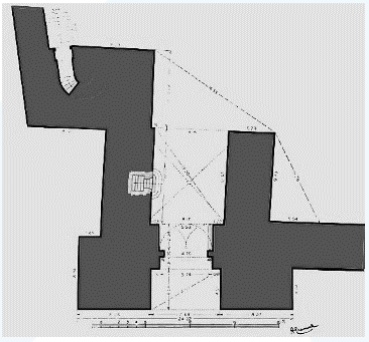
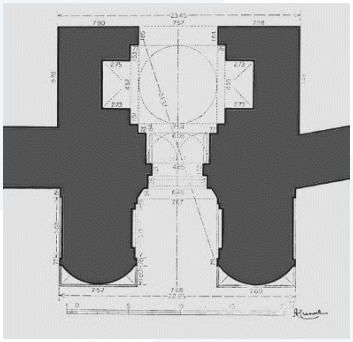
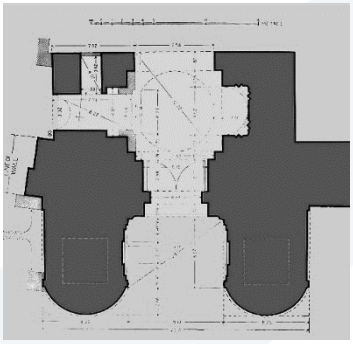

القاهرة: باب النصر　　باب الفتوح　　باب زويلة

2. الجـــامع الأزهـــر al-Azhar Mosque

يعد الجامع الأزهر، الذي يقع في جنوب شرقي المدينة، من أشهر مباني القاهرة الفاطمية. ترافق بناء الجامع الأزهر مع تأسيس القاهرة. وأقيمت أول صلاة جمعة في الجامع في رمضان عام 362 هـ/972 م. تحول إلى جامعة إسلامية هامة، حيث لم تكن المدارس قد ظهرت كمبان مستقلة بعد.

مسقط الجامع الحالي هو نتيجة لأعمال التجديد والتوسع المتعددة التي تمت في العصور اللاحقة. ولكن يمكن تبين الجامع الفاطمي الأول. حرم الجامع يشبه الجامع الأموي في دمشق، فهو يتألف من مجازات موازية لجدار القبلة، ولكن عددها هنا خمسة مجازات بدلا من ثلاثة، يقطعها في الوسط مجاز قاطع أكثر اتساعا وارتفاعا يتميز بوجود عمودين متلاصقين على طرفيه، وهو ينتهي عند المحراب بقبة. وكانت توجد قبتان في ركني الجامع الجنوبيين قبل التوسعة.

الجامع مشيد من الآجر فيما عدا الأعمدة الحجرية والتيجان، التي تعود في أصلها إلى أبنية أقدم، وهي تحمل أقواسا مدببة يربط فيما بينها عوارض خشبية لتلقي قوى الشد. سقف الحرم مستو مؤلف من جسور خشبية.

كان يحف بالصحن في البدء رواقان على جانبيه الشرقي والغربي فقط. ثم أضيف أمامها رواق آخر يحيط بالصحن من جميع جهاته ويعطيه طابعه المميز، وكان ذلك على الأغلب في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (526-

544 هـ/1131-1149 م). واجهة هذا الرواق، تتكون من أعمدة حجرية تحمل أقواسا معروفة بالأقواس الفاطمية، التي تتميز بأنها مرسومة من مركزين، بينما يشكل قمة القوس مماسان مستقيمان، بالإضافة إلى إطالة القوس نحو الأسفل في كثير من الأحيان. بين الأقواس نجد محاريبا تنتهي بأقواس مماثلة وهي تتناوب مع حليات دائرية تعلو الأقواس وهي محاطة بزخارف جصية. يتوج الواجهة شريط زخرفي ينتهي بصف من الشرافات المسننة. تم التركيز على المجاز القاطع أو محور المحراب برفع الواجهة مع وجود قبة تتوسط الرواق.

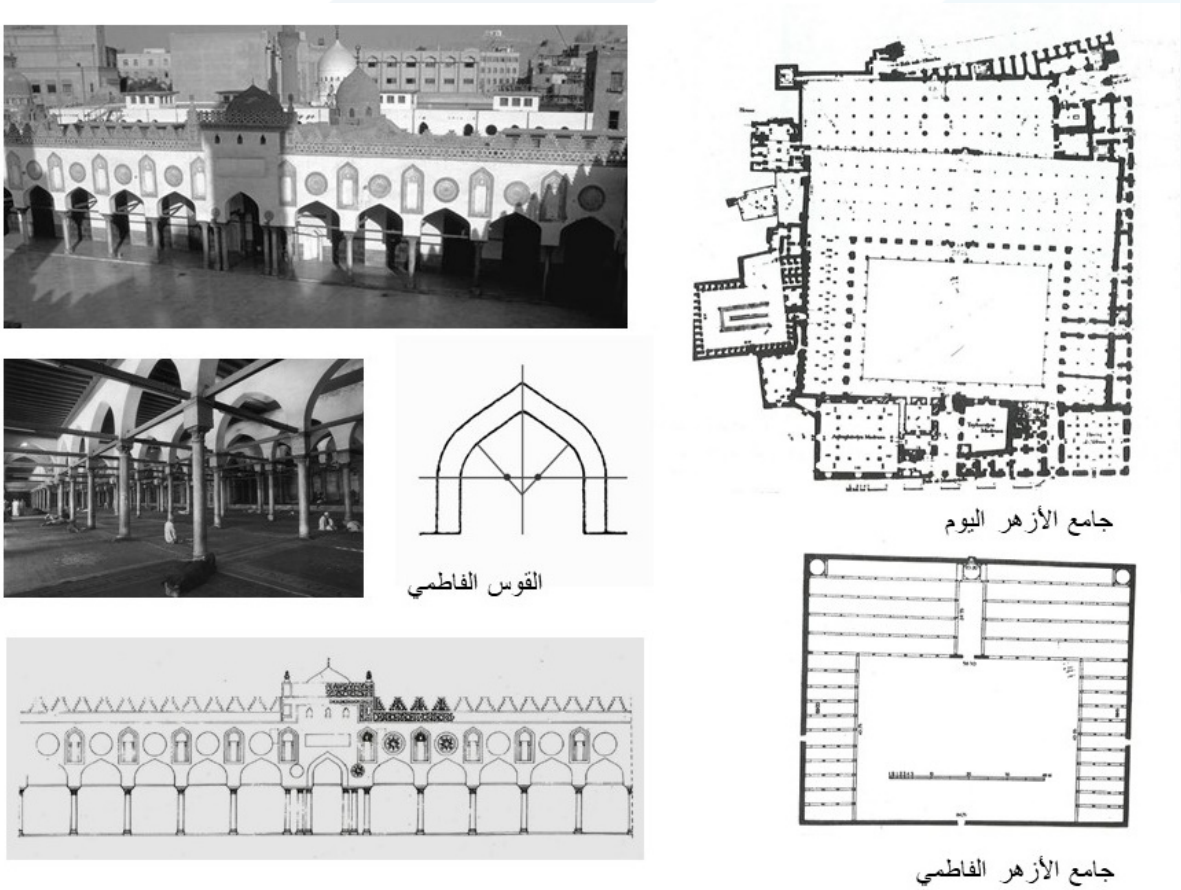

الجامع الأزهر في القاهرة: تطور المسقط - واجهة الحرم المطلة على الصحن برواق من الأقواس الفاطمية
إنشاء القوس الفاطمي - حرم الجامع

تم توسيع الجامع في العهود اللاحقة، ففي الشمال عند المدخل الرئيس أنشئت في العهد المملوكي مدرستان، الطيبَرَسية والأقْبغاوية. وجددت البوابة في عهد السلطان قايتباي. كما تم توسيع الحرم في عهد العثماني 1167هـ/ 1753 م نحو الجنوب بإضافة أربعة مجازات جديدة مع الاحتفاظ بالمحراب الفاطمي القديم وبناء محراب جديد في نهاية مجاز قاطع جديد يقع إلى يسار المحراب القديم. أما المآذن الحالية فهي تعود إلى العهد المملوكي (مئذنتا قايتباي والغوري) والعثماني (مئذنتا كتخدا).

3. جـــامع الحـــاكم al-Hakim Mosque

شيد جامع الحاكم خارج سور القاهرة الشمالي. وحين جدد السور أصبح الجامع داخل السور الجديد ويلتصق به بين باب النصر والفتوح. الجامع مبني من الآجر مع استخدام الحجر في البوابات والمآذن.

بدئ ببناء الجامع في عهد الخليفة العزيز سنة 380 هـ/ 990 م، ولكنه لم يتم إلا في عهد ابنه الحاكم سنة 403 هـ/1013 م. وهو من أكبر مساجد القاهرة بعد جامع ابن طولون.

الحرم يتألف، كما في الأزهر، من خمسة مجازات موازية لجدار القبلة، مع وجود مجاز قاطع في الوسط ينتهي عند المحراب بقبة وعلى جانبيها في الزوايا قبتان أخريان. الصحن محاط بالأروقة المكونة في الجهتين الشرقية والغربية من ثلاثة مجازات موازية للجدار الخارجي، بينما لا يتألف إلا من مجازين في الشمال. الأروقة والحرم كانت مؤلفة من دعامات آجرية مستطيلة في أركانها سويريات، كما في جامع ابن طولون وجامع أبي دلف، الدعائم

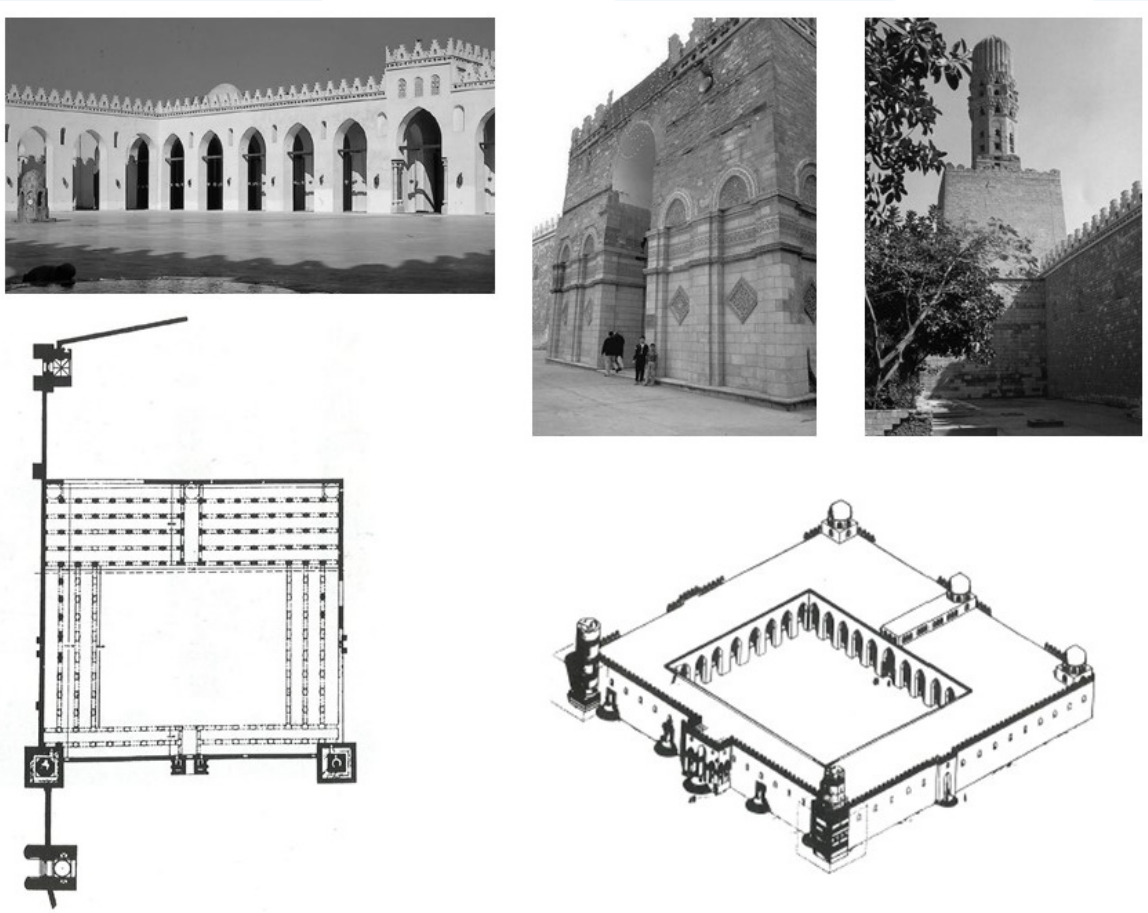

جامع الحاكم في القاهرة: الواجهة الشمالية مع البوابة الحجرية - صحن الجامع - منظور - مسقط

تحمل أقواسا مدببة وأسقفا خشبية مستوية. المسجد كان إلى زمن قريب مهدما. وتم ترميمه في تسعينات القرن الماضي ولكن ذلك تسبب في إزالة الكثير من المعالم الأصيلة بعد إكساء الجدران والدعائم والأرضيات بالرخام الأبيض. من العناصر التي لم تنالها يد الترميم بالتغيير المحراب.

أهم ما في الجامع واجهته الخارجية الشمالية المشيدة بالكامل من الحجر المنحوت. تتوسطها بوابة بارزة على شكل إيوان غائر بين برجين مربعين (تقع على محور المحراب). الواجهة مزينة بالمحاريب المسطحة والمعينات الحجرية المزخرفة. بينما يحتل الزاويتين مئذنتان إحداها كانت أسطوانية في الأصل والأخرى كانت تبدأ ببرج مربع ثم يتم الانتقال إلى برج أصغر مضلع. أحيطت المئذنتان بعد بنائهما بعدة سنوات بجدار خارجي إضافي على شكل برج مربع تتناقص أبعاده نحو الأعلى. القسم العلوي الذي نراه اليوم شيد بالآجر في عهد المماليك. الواجهة الشمالية للجامع تظهر بدء الاهتمام بالواجهات الخارجية وخاصة بالبوابات، وترتبط حتما بموقع الجامع المطل على شارع المعز وهو الشارع الرئيس في المدينة.

4. الجـــامع الأُقمـــر al-Uqmur Mosque

شيد جامع الأقمر في عصر الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة 519 هـ/1125 م على شارع المعز الذي يخترق القاهرة من الشمال إلى الجنوب. وهو جامع صغير أبعاده لا تتجاوز 40 م، مسقطه يختلف عن المساجد الكبيرة. فله صحن مربع محاط بأروقة تنفتح على الصحن بصف من الأقواس الفاطمية المحاطة بأشرطة زخرفية جصية تحمل نقوشا كتابية. الأروقة تقسم إلى مجازات متساوية بواسطة أقواس معترضة. وحرم الجامع يتألف من ثلاثة مجازات موازية لجدار القبلة.

نلاحظ انحراف الواجهة الرئيسة والبوابة عن محور المسجد، الذي يتجه باتجاه القبلة، بينما يتبع المدخل منحى الشارع الذي ينفتح عليه وقد تم تجاوز ذلك بكسر محور الدخول واستخدام مسقط مثلث الشكل على جانبي المدخل.

الواجهة الخارجية الرئيسة مبنية بالكامل من الحجر المنحوت. البوابة تبرز قليلا عن الواجهة. الباب، الذي ينتهي من الأعلى بساكف أفقي مكون من مجموعة من الحجارة المعشقة، وهو ينفتح ضمن إيوان غائر ذي قوس من النوع الفاطمي محاط بشريط زخرفي. يتم الانتقال إلى عمق الباب بواسطة نصف قبة (أو ما يعرف بالطاسة) وهي مفصصة على شكل صدفة أو شعاعي يتوسطها قرص منقوش بالزخارف والكتابات. تتميز الواجهة على جانبي الإيوان بتصميم متناظر، يتألف في كل من الجانبين من محراب ينتهي في الأعلى بقوس مدبب ويعلوه ضمن إطار مستطيل، مقرنصات. يعلو ذلك محراب آخر أصغر، ذو قوس مدبب مفصص يستند إلى سويريتين.

وتنتهي البوابة كلها في الأعلى بشريط من الكتابة بالخط الكوفي المحفور حفرا غائرا. وتعتبر هذه الواجهة الحجرية الصغيرة ذات أهمية مميزة في تطور الواجهات وفي تطور الأشكال الزخرفية في الفترة الفاطمية وما يليها.

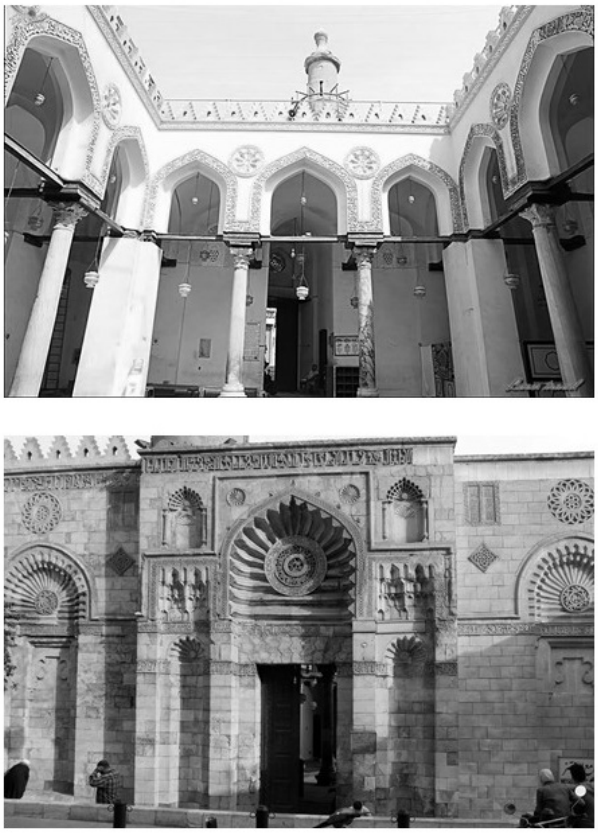

جامع الأقمر: المسقط - صحن الجامع - الواجهة الخارجية المطلة على شارع المعز

5. جـامع الصـالح طـلائع al-Saleh Talaii Mosque

بني الصالح طلائع وزير الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله سنة 555 هـ/1160 م جامعا سمي باسمه خارج أسوار القاهرة الجنوبية، قرب باب زويلة.

يتميز هذا المسجد بابتكار في التصميم والعناصر. إذ يتقدم الواجهة الخارجية التي تضم البوابة الشمالية الرئيسة رواق مؤلف من خمس أقواس، بين جناحين مربعين. ويتم الصعود إلى البناء بواسطة درج كونه يرتفع عن مستوى الشارع بمقدار 4 م وجُعل في أسفله حوانيت .ويطلق على هذا النمط من المساجد اسم "المساجد المعلقة"، وهو يعتبر أول مثال لجامع معلق في مصر. وقفت الحوانيت على الجامع، واستخدم ريعها لصيانته وتجديده وخدمته. وقد اتبع هذا النظام من الوقف بعد ذلك في العصر المملوكي.

أقواس الرواق الخارجي من النوع الفاطمي وهي محمولة على أعمدة حجرية رشيقة. أما الواجهات الخارجية الأخرى فتمتاز بالزخارف والنقوش الحجرية التي تكرر الأقواس الفاطمية في رواق الواجهة الرئيسة على شكل محاريب غائرة.

يتم الوصول إلى صحن الجامع عبر ممر مسقوف بقبوة أسطوانية، مع وجود بابين إضافيين في الجهتين الشرقية والغربية للمسجد. الصحن محاط من ثلاث جهات برواق ذي أقواس فاطمية. حرم الجامع يتألف من ثلاثة مجازات موازية لجدار القبلة. نلاحظ أن المجاز الملاصق للقبلة هو أعرضها إضافة إلى كون الأقواس الواقعة على محور المحراب أوسع من الأخرى. الأقواس الفاطمية من النوع المتطاول وقد زودت جميعها بأوتار خشبية تشد الأقواس إلى بعضها البعض. الزخارف جصية ذات نماذج نباتية وكتابات كوفية، بالإضافة إلى الحليات الدائرية والمحاريب الشعاعية.

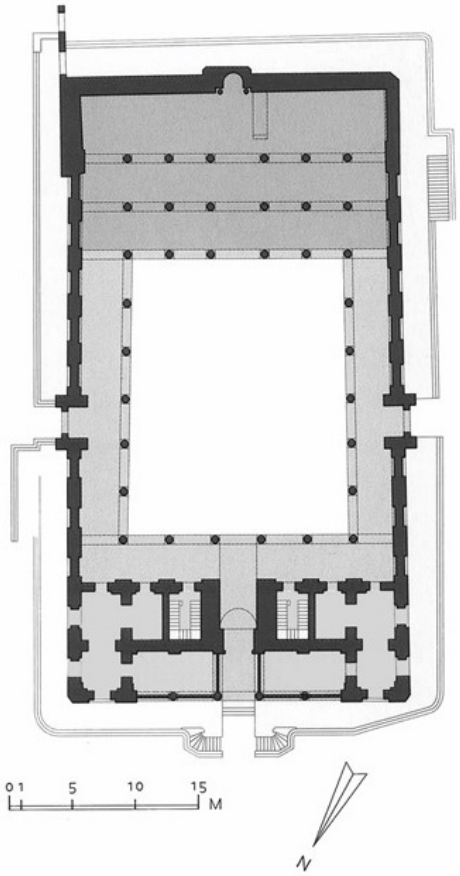

جامع الصالح طلائع في القاهرة: المسقط - صحن الجامع - صورة علوية تبين الواجهة الرئيسة ذات الرواق

6. خصـــائص العمـــارة الفـــاطمية

تأثرت العمارة الفاطمية في البدء بالعمارة الآجرية لدى الطولونيين وما تميزت به من عناصر زخرفية جصية. ثم تم الانتقال إلى العمارة الحجرية المتقنة وذلك بتجديد أسوار القاهرة ثم بناء الواجهات الخارجية لجامع الحاكم وجامع الأقمر بزخارفها الحجرية المميزة وصولا إلى الواجهات الحجرية المحيطة بالمبنى من جميع الجهات، كما في جامع الصالح طلائع. وبالتالي بدأ في هذه الفترة من العمارة الإسلامية الاعتناء بالواجهات الخارجية وخاصة بالبوابات، كما تم ابتكار شكل جديد للأقواس هو القوس الفاطمي.